

الاجتماعي في «المسرح الوطني الجزائري»⁽¹⁾

عرض: أ. مخلوف بوكروح
أستاذ مساعد بمعهد علوم الاعلام
والاتصال.

تأتي أهمية البحث في التجربة المسرحية الجزائرية من خلال مؤسستها الرسمية الممثلة في «المسرح الوطني الجزائري» من كونها منبرا ثقافيا قادرا على رصد الواقع الاجتماعي والكشف عن الايجابيات والسلبيات التي تنتج عن التغير الاجتماعي، والوقوف الى جانب الممارسات البناءة وتدعيمها، ونقد الانحرافات التي تقع في هذا الميدان أو ذاك. وذلك انطلاقا من كون المسرح نشاطا ثقافيا يندرج ضمن سياق اجتماعي عام وفلسفة ثقافية ذات معالم معينة يتم العمل بها وفي إطارها، والمسرح لا يكاد يخرج عن هذه الدائرة، فهو يستمد منها توجيهاته، أي أن العمل المسرحي نفسه يكون رؤية لما يحدث من تغيرات في البني الاجتماعية والسياسية للبلاد، كما أنه يخضع لديناميكية هذا التغير الذي يشكل المادة الرئيسية لموضوعاته. وفي هذا المجال فقد كان المطلوب من مؤسسة «المسرح الوطني الجزائري» بعد الاستقلال أن تخطط لنشاطها وأن تقوم ببعث حركة مسرحية ونشرها والاتصال بالجمهور والوقوف الى جانب القضايا والاحداث التي يعيشها المجتمع الجزائري ومعالجتها.

ضمن هذا الاطار ارتأى الباحث ضرورة القيام ببحث ميداني لواقع المسرح الوطني الجزائري خلال الفترة الممتدة من 1963 الى 1972. وتجدر الاشارة الى أننا لم نضع لهذا البحث فرضيات بسبب عدم وجود دراسات مسحية شاملة لسيروية «المسرح الوطني الجزائري» وأن الهدف الذي وضعناه لهذا البحث هو الذي دفعنا الى القيام ببحث مسحي صرف يوفر أرضا بكرا لتحصّل ما ينتج عن عدم وجود الوثائق أو نقصانها، ياثارة تساؤلات، وأرضا بكرا لبحوث أكثر تخصصا قائمة على معطيات ملموسة. وقد لاحظنا من خلال هذا البحث أن المسرح الجزائري عموما يعاني من قلة

الدراسات العلمية، والبحوث الأكاديمية، خاصة الدراسات الميدانية، وبالرغم من ذلك فقد توصلنا الى حصر ثنائي دراسات تناولت كلها موضوع المسرح في الجزائر. وقد استخلصنا من هذه الدراسات، أن الاهتمام بالمسرح في الجزائر حديث نسبيا، إذ أن معظم هذه الدراسات تمت في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، باستثناء دراسة واحدة تمت في منتصف الستينات.

كشفت هذه الدراسات أن ثلاثا منها اعتمدت على النص المسرحي في الخطاب السياسي، والطابع الاحتجاجي لبعض النماذج المسرحية، وكذا الاستعمالات المختلفة للغة في المسرح الهاوي خاصة. كما أظهرت بعض الدراسات اهتمام المسرح الجزائري باستلهام الواقع الاجتماعي وذلك بتوظيف مختلف العناصر والرموز الشعبية لتأكيد خصوصية المسرح الجزائري في تعامله مع الواقع الاجتماعي، وكشفت دراسة اتجاهات المسرح العربي في الجزائر عن مختلف الاتجاهات والموضوعات والسمات الفنية للمسرح في الجزائر.

ومن الأهمية التي تكتسبها الدراسات التي تبحث في علاقة المسرح بالمجتمع، ظهرت لنا بحث مشكلة اجتماعية المسرح في الجزائر، بهدف وضع التجربة المسرحية بعد الاستقلال في سياقها التاريخي، والبحث في مدى قدرة مؤسسة «المسرح الوطني الجزائري» في الاسهام في مناقشة القضايا الوطنية المطروحة بعد الاستقلال في مختلف المستويات، مستوى الوعي الاجتماعي والسياسي والثقافي والتي ستعكسها العلاقة بين موضوعات المسرحيات المقدمة في فترة البحث، وبين استجابة الجمهور وردود أفعاله.

غير أن دراسة هذه العلاقة تقتضي التركيز على بعض الجوانب بما يفيد البحث، وذلك انطلاقا من طبيعة المسرح الذي يعد فن متعدد الجوانب، فبالإضافة الى طابعه الادبي الذي يتميز به من حيث اعتماده على النص، فهو عرض مجسد فوق المنصة، يشترط الحضور البشري. الى جانب ذلك، يمكن أن تدرس المسرحية من حيث أنواعها المختلفة، أو من حيث مذهبها الفنية المتنوعة، أو من حيث آثارها الاجتماعي وعلاقتها بالبيئة التي تدور حولها.

يهدف هذا البحث المسحي لواقع «المسرح الوطني الجزائري» الى معرفة ما يلي:

1 - التعرف على العلاقة بين موضوعات المسرحيات المقدمة وعددها ست وثلاثون مسرحية والواقع الاجتماعي لفترة البحث.

2 - التعرف على مدى إقبال الجمهور على عروض المسرحيات واستجابته لمضامينها.
3 - التعرف على مدى اسهام الصحافة المكتوبة في التعريف بالمسرح ونشاطاته استجابة لاحدى وظائف الصحافة الرامية الى توعية الجمهور.

بالنسبة للمنهج المعتمد في هذا البحث، فقد استخدمنا المنهج المسحي نظرا لطبيعة الدراسة ذاتها التي تتكون مادتها من دراسة مسحية لواقع «المسرح الوطني الجزائري» بتصنيف وتحليل المادة المدروسة بمختلف مصادرها وعناصرها.

وقد قسمنا هذا البحث المسحي الى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. شملت المقدمة الاطار المنهجي الذي يحدد الخطوات المتبعة في إنجاز هذا البحث، واستعرضنا في التمهيد السياق التاريخي الاجتماعي للمسرح الجزائري قبل الاستقلال.

تناول الفصل الأول سياسة الجزائر في مجالي الثقافة والمسرح بعد الاستقلال، وبحث عن مكانة المسرح من خلال اللائحة التي صدرت بشأنه، كما تم الكشف عن المصادر التي استقى منها المسرح الوطني الجزائري موضوعاته. وقد صنفنا موضوعات الانتاج المسرحي الى صنفين: المسرحيات التي تناولت موضوع الثورة التحريرية الجزائرية، والثورات التحررية، والمسرحيات المواكبة للتغير الاجتماعي سواء التي جسدت الصراع الاجتماعي أو التي جسدت الصراع النفسي الاخلاقي.

وتناول الفصل الثاني إقبال الجمهور على عروض المسرح الوطني الجزائري بالاعتماد على مجموعة متغيرات. التوزيع الزمني للعروض المسرحية حسب السنوات، الاشهر، الايام، المواقيت، والانواع، وإقبال الجمهور على المتغيرات نفسها مع ابراز توزيع الجمهور على طبقات المقاعد.

أما الفصل الثالث فتناول الانتاج المسرحي في الصحافة الوطنية المكتوبة اعتمادا على مجموعة من العناصر منها حجم التغطية الاعلامية ونسبتها لتقويم مدى اهتمام الصحافة الوطنية بالمسرح خلال فترة البحث من الناحية الكمية قياسا بمساحة صفحات نشر التغطية، وكذا البحث في نوعية التغطية الاعلامية لمعرفة نوعية اهتمام الصحافة بالمسرح، والبحث أخيرا في مستوى التغطية ودرجة معالجة هذه الصحف نشاط «المسرح الوطني الجزائري».

وقد توصلنا في النهاية الى استخلاص بعض النتائج نذكر أهمها: فقد لاحظنا أنه بالرغم من النقص المسجل في نشاط «المسرح الوطني الجزائري» المسجل في التفاوت بين

المصادر والموضوعات، وبين الانواع ووسيلة التعبير، وعدم الاهتمام بنشر النصوص المسرحية التي قدمها «المسرح الوطني الجزائري» في هذه الفترة خاصة منها المسرحيات المحلية، وكذا النقص الكبير في الارشيف، فإن ما يمكن أن نستخلصه من الفصل الخاص بمصادر وإنتاج «المسرح الوطني الجزائري»، أن مضامين هذه المسرحيات كان لها علاقة بالواقع الاجتماعي الذي شهدته الجزائر خلال هذا العقد الزمني، إلا أن البحث عن مسرح وطني جزائري أصيل يبقى محل جهد متواصل، من أجل تأصيل هذا الفن في حركة المجتمع، وتشجيع الكتابة في مجال المسرح لحل معضلة النص المعبر عن القضايا الوطنية.

ولاحظنا أن التفاوت المسجل في توزيع العروض على مختلف المتغيرات انعكس بصورة مباشرة على إقبال الجمهور. وهذا التفاوت مصدره عدم وجود سياسة للإنتاج والتوزيع المسرحي على الصعيد الكمي والنوعي، فضلا عن انعدام التخطيط والبرمجة الدقيقة للموسم المسرحي. هذا كله أدى إلى عدم إرساء تقاليد اجتماعية يتبعها الجمهور في إقباله على عروض «المسرح الوطني الجزائري».

أن الجمهور المسرحي لا يمكن تكوينه من خلال عروض محدودة تقدم من حين إلى آخر ولفترات غير منتظمة، بل إن تكوين الجمهور المسرحي هي عملية شاملة تندرج ضمن تخطيط علمي، تشارك فيه كل الأطراف المعنية من مسؤولين وعاملين بالمؤسسات المسرحية بالتعاون مع المؤسسات التربوية والإعلامية لانعاش الحركة المسرحية. ولن تتم هذه العملية إلا بالبحث الجاد في الوسائل التي تربط الجمهور بالمسرح، والتي تقوم على الدراسة الميدانية، والتجربة العملية النابعة من واقع الجمهور، ومعرفة اهتماماته وطبيعته، في إطار الدراسات التي تبحث في سوسيولوجية الجمهور المسرحي.

وبالرغم من التفاوت الملحوظ في التغطية الإعلامية، فقد استخلصنا بعض الملاحظات من هذه النماذج التي لم تتجاوز مستوى الملاحظة الشكلية لما طرحته المسرحيات، والتي توقفت عند حدود تقديم ملخصات عنها دون البحث في القضايا التي طرحتها، وإبرازها للقارئ، انطلاقا من معايير ومقاييس تشترطها خصائص النقد المسرحي إذ لم تتمكن هذه التغطية من ربط مضامين المسرحيات وكشف علاقتها بالواقع الاجتماعي للجزائر خلال هذه الفترة.

إن مستوى تناول الصحافة الوطنية لنشاط «المسرح الوطني الجزائري» لم يخرج في إطاره العام عن السرد والوصف الخالي من التوجيه والارشاد القائم على نشر الثقافة المسرحية، والتركيز على شرح مهمة ووظيفة المسرح من أجل الاسهام في المجهود الثقافي وذلك انطلاقا من الدور الذي يلعبه المسرح في المجتمع.

يتضح من كل هذا أن المسرح لم تعط له المكانة اللازمة على الصعيد المادي والمعنوي بوضع أسس مادية وقاعدة قانونية تستمد منها المؤسسة المسرحية سياسة لإنتاجها، أو بتغطية إعلامية وتشجيع المثقفين بالاهتمام بهذا القطاع، وهو ما انعكس على نشاطه، بحيث لم تتمكن المؤسسة المسرحية إقامة علاقات وطيدة مع الجمهور.

أما عن الصعوبات التي كان يعاني منها المسرح في الجزائر، فهي صعوبات متداخلة ومتشابكة، منها ما هو خاص بطبيعة الفن المسرحي الحديث النشأة في البيئة الثقافية الجزائرية، ومنها ما له علاقة بالمناخ الثقافي والسياسي للمجتمع ذاته. وهو ما يجعلنا نستخلص أنها تجربة على غرار التجارب التي عرفت بها الجزائر في هذه الفترة في مختلف المجالات الثقافية. وأن العملية المسرحية جهد جماعي، يشترك فيه المؤلف والمخرج والممثل والجمهور، إلى جانب المؤسسات الثقافية والإعلامية التي لها علاقة مباشرة مع المسرح، ولن تتحقق هذه العملية إلا باشتراك هذه العناصر كلها. ويبقى العمل على إمكانية تطوير مجال دراسة اجتماعية المسرح في الجزائر، خاصة بعد إحداث مسارح جهوية، وهو مؤشر للاهتمام الرسمي بقطاع المسرح كأحد القطاعات الثقافية الهامة.

الهوامش

- (1) الاجتماعي «المسرح الوطني الجزائري» 1963-1972 دراسة مسحية، عنوان مذكرة ماجستير تقدم بها، مخلوف بوكروج، ونوقشت في مارس 1990. (تحت إشراف الاستاذ خالد عبد الله السلام.